إسرائيل والثورة السورية : عدو ـ عدوي = عدوي

بقلم مصطفى العاني

في أحد الاجتماعات شبه الرسمية المخصصة لتقويم الموقف الدولي تجاه ثورة الشعب السوري ، التي عقدت أخيرا في إحدى الدول الأوروبية ، جلست بكل حواسي استمع لكلمة المتحدث الإسرائيلي الذي حاول وبصراحة تلخيص موقف حكومته المعارض لتوفير الدعم للثورة السورية. بدأ المتحدث الإسرائيلي بالقول (إن القيادة الإسرائيلية تعمل على حسابات أن عدو - عدوي قد يكون عدوي كذلك. ولا تؤمن بقدسية القول الشائع إن عـدو عـدوي : صديقي) واسترسل شارحا أسس الحسابات الاستراتيجية الإسرائيلية التي قادت إلى اتخاذ قرار محدد المعـالم وعلـى أعلى مستويات الدولة ، بوجوب الوقوف ضد مشروع توفير أي شكل من أشكال الدعم الخارجي للثورة السورية. قال المتحدث :(إن أمن وسلامة إسرائيل هو المعيار الوحيد الذي يؤسس عليه القرار الإسرائيلي. ولا تجد القيـادات الإسرائيلية ، على اختلاف مشاربها ، أو انتماءاتها السياسية أو الحزبية ، أي منفعة عملية أو مصلحة فعليـة في تغـيير النظام السوري القائم. ففي حسابات الخسارة والربح. يعدّ سقوط النظام السوري القائم تطورا سلبيا خطرا على أمن إسرائيل ، قد تنتج عنه عواقب لا يمكن تخمين آثارها الآن) . وعلى رغم تأكيد المتحدث بوجود تعاطف في إسرائيل مع معاناة الشعب السوري ، ومع مطالبه في تحقيق الحرية و الديمقراطية (فإن التعاطف الحقيقي و الأخير في الدولة و المجتمع الإسرائيلي سيكون مع مصالح الشعب الإسرائيلي ومع السياسيات التي تخدم أمن واستقرار دولة إسرائيل) .

عند انطلاق ظاهرة الربيع العربي وبداية سقوط الأنظمة السياسية في تونس ومصر وغيرهـا ، قامـت أجهـزة المخابرات الإسرائيلية بدرس إمكان انتشار الثورات الشعبية إلى سورية ، انقسم المجتمع المخابراتي الإسرائيلي بين واثق من حتمية انتشار الثورة إلى سورية ، وبين قائل بأن النظام السوري يختلف في طبيعته عن الأنظمة العربية الأخـرى ، واحتمالُ انتشار الثورة إلى سورية يعد احتمالا ضئيلا ، ومع بداية أحداث الثورة في مدينة درعا أواخـر شـهر آذار (مارس) 2011م طلبت القيادة السياسية الإسرائيلية من أجهزة المخابرات تقويم الموقف الإسـرائيلي تجـاه الثـورة السورية ، وقد برز سؤالان تقليديان أمام صناع القـرار ، الأول : هل توجد مصلحة إسرائيلية في دعم عملية إسقاط النظام ؟ والثاني : ما البديلُ المحـتمل ، وما مواقفه وسياساته المحتملة تجاه أمن ومصالح إسرائيل ؟ استرسل المتحـدث الإسرائيلي قائلا : (إن إجابة المجتمع المخابراتي الإسرائيلي عن السؤال الأول كانت محددة وغير قابلة للجدل ، إذ تم التأكيد على أن إسرائيل لا تجد أي منفعة أو مصلحة بإسقاط النظام السوري القائم ، وهذا الاسـتنتاج اسـتند إلى الحقائق العملية المتصلة بطبيعة العلاقات بين نظام الأسد و اسرائيل. ذهب المتحدث موضحا أن العلاقة بين إسـرائيل والنظام السوري علاقة غريبة بين طرفين عدوين كانا ولا يزالان في حال حرب رسمية ، فعلـى رغـم الخلافـات

والاختلافات بين النظام السوري القائم ودولة إسرائيل ، فالنظام السوري ، بالتقديرات المخابراتيـة الإسـرائيلية ، تمكن من إدراك وقبول قواعد اللعبة ، مع إسرائيل ، ويتفهم ويحترم الخطوط الحمر لصنّاع القرار الإسـرائيلي ، لـذا وخلال الـ 40 عاما الماضية ، أي منذ نهاية حرب عام ١٩٧٣م ، برز عامل الثقة غير المعلنة بين الطرفين ليـتحكم بالعلاقات الإسرائيلية - السورية ، وعلى رغم أن النظام السوري سعى لفتح جبهات خارجية ضد إسرائيل، فإنه لم يفكر خلال الـ 40 عاما الماضية بفتح الجبهة السورية. هذا على رغم احتلال إسرائيل المستمر للأراضي السورية ، وعلى رغم توسع عمليات الاستيطان الإسرائيلي المستمرة ، وعلى رغم قيام الطائرات الإسرائيلية بمهاجمة أهـداف ضمن الأراضي السورية بين فترة وأخرى ، كان آخرها عام 2007م ، حين هاجمت الطائرات الإسرائيلية موقعـا نوويا مفترضا في عمق الأراضي السورية ، لذا فإن المتحدث الإسرائيلي حاول إقناع المجتمعين ، أن قـرار إسـرائيل المعارض للثورة السورية يقوم على أسس واقعية ، تنبع من حماية المصالح العليا للدولة الإسرائيلية.

الجزء الثاني من السؤال الذي تعامل معه المجتمع المخابراتي الإسرائيلي ، قبل إصدار توصياته للقيادة الـسياسية ، يتعلق بطبيعة النظام البديل المحتمل للنظام السوري القائم ، فالنظام البديل لنظام الأسد سيكون ذا صبغة إسـلامية أو وطنية أو قومية تضعه تلقائيا في خانة معاداة إسرائيل. وستكون أول أهدافه المطالبة بالأراضي السورية المحتلة أو العمل على استعادتها بالقوة، وتطور مثل هذا سيدخل إسرائيل في دوامة جديدة من الصراع على الجبهة السورية ، الذي قد ينتشر إلى الجبهات الأخرى ، وقد تتحول سورية إلى مركز للجماعات الجهادية والإرهابية التي ستجد موطئ قدم لها في جبهة ظلت هادئة لأربعة عقود زمنية ، لذا فإن حصيلة التقديرات المخابراتية الإسـرائيلية : أن البـديل للنظـام السوري القائم قد يشكل أخطارا وتهديدات كبيرة لأمن واستقرار إسرائيل ، وأن الافتراض بأن النظـام البـديل في سورية سيكون معاديا لإيران أو لحزب الله لا يعني شيئا كثيرا بالنسبة لأمن الدولة الإسرائيلية ، لأن هذا النظام البديل سيكون ، في الوقت نفسه ، معاديا لإسرائيل لذا فإن القيادة الإسرائيلية في قرارها بتبني موقف معارض لتوفير الـدعم للثورة السورية استندت إلى قاعدة :عدو ـ عدوي = عدوي.

وكنتيجة لتبني هذا الموقف قررت الحكومة الإسرائيلية وضع (فيتو) واضح وقاطع على أي جهـود خارجيـة ، إقليمية أو دولية ، لتوفير الدعم للثورة السورية. وتم إعلام جميع الأطراف الدولية بنية إسرائيل بالعمل على إعاقـة أي مشاريع لتوفير الحماية الدولية للثورة السورية ، أو تقديم أي إسناد سياسي أو عسكري قد يساعد الثورة في تحقيـق الانتصار.

إفشال الثورة السورية أمسى اليوم أحد الأهداف الاستراتيجية للدولة الإسرائيلية ، ومن سخريات القدر ومهازل التاريخ أن تقف إسرائيل وايران وحزب الله على أرض مشتركة ، وفي خندق واحد لحماية النظام السوري من ثـورة الشعب.

مصطفى العاني: مدير قسم الدراسات الأمنية والدفاعية في مركز الخليج للأبحاث.